جامعة عبد الرحمن ميرة ***الوحدة: نقد عربي قديم***

كلية الآداب و اللغات ***أ/ شيبان***

قسم اللغة و الأدب العربي

النقد الانطباعي في العصر العباسي

استفاد نقاد العصر العباسي من الثورة النقدية التي جناها النقد العربي منذ العصور القديمة (الجاهلية حتى القرن الثالث الهجري)، فبنوا عليها نقدهم، وراحوا يلمّون شتاتها، فسجلوا هذا الزخم التراثي، ودوّنوه في الكتب والمؤلفات« **فنقل إلى السطور ما كان يجري على الألسنة وما كانت تحوي الصدور من ألوان المعرفة التي لم تقف عند ألوان الثقافة العربية** »[1].

كما استفاد العباسيون من الثقافات الوافدة بفعل حركة الترجمة، وسرت تلك المعارف الأجنبية إلى الحركة النقدية والأدبية، فانصب النقد الأدبي على الفنون الأدبية الأخرى؛ كالكتابة والخطابة. ولقد سلكت الحركة النقدية في العصر العباسي مسلكين اثنين هما:

***المسلك الأول:** قيام العلماء والرواة بجمع أشعار الجاهليين والإسلاميين، وتنقيحها وضبطها، وإبراز آرائهم فيها. فنقدوها نقداً إيجابياً تجاوز حدود التذوق إلى التفسير والتعليل، مبيّنين دواعي الاستهجان والاستحسان. وقد احتكم هؤلاء الرواة في مفاضلاتهم بين الشعراء إلى أذواقهم ومفهومهم للشعر. فمنهم من كان يميل إلى جزالة اللفظ، ومنهم من كان يميل إلى النحو ويشتغل به، فيتحمس لمن كان في شعره شواهد نحوية لا تخرج عن قواعد العربية الفصيحة.

[1] - بدوي طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي، ط6، دار الثقافة بيروت، لبنان، 1974، ص 129.

***المسلك الثاني:** سلك النقاد في العصر العباسي مسلكاً لم يسبقوا إليه؛ وهو مسلك علمي تمثل في وضع الكتب والمصنفات، وكان لتلك الكتب أثرها في جمع آراء الرواة والعلماء، فتباينت من حيث الموضوعات والمناهج والغايات، فبعضها انتهج في النقد منهجاً تاريخياً؛ على نحو ما فعل ابن سلاّم الجمحي ت231هـ في كتابه (طبقات الشعراء)، وابن قتيبة (ت276هـ-889م) في كتابة (**الشعر والشعراء**)، والمرزباني(ت384 /994م) في كتابة (معجم الشعراء).

كما عمدت طائفة من النقاد إلى قصر الدراسة على شاعر أو اثنين؛ على نحو ما فعل أبو الحسن الآمدي(**ت370هـ/م980**) في كتابه (الموازنة بين الطائيين)، أو القاضي عبد العزيز الجرجاني(**ت392/1001م**) في كتابه (**الوساطة بين المتنبي وخصومه**).

أما بعض المصنفات الأخرى فقد سلك أصحابها مسلكاً فنّياً صرفا، فراحوا يدرسون طبيعة الفن الأدبي؛ شكلاً ومضموناً، فعاينوا أركانه وخصائصه على نحو ما فعل ابن طباطبا (ت322هـ/934م) العلوي في كتابه (**عيار الشعر**)، وقدامة بن جعفر(ت337هـ/948م) في مؤلفه (**نقد الشعر**)، وابن رشيق القيرواني(ت390/1070م) في مؤلفه (**العمدة في محاسن الشعر ونقده**)، وضياء الدين بن الأثير(ت630هـ/1232م) في كتابه (**المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**).

إن قيام الدولة العباسية أدى إلى انحراف الحياة العربية عن **البداوة** نحو التأثر **بمظاهر الحياة الجديدة**، فظهرت طائفة من الشعراء تأثرت بمظاهر الحياة الجديدة عُرفت بطائفة **الشعراء المُحدثين**، إذ قادت حركة التجديد في أسلوب الشعر وبلاغته وصياغته، فكان لشعرائها بعض المعاني المستحدثة، ومن أبرز هؤلاء الشعراء (**بشار بن برد، مسلم بن الوليد، أبو تمام، أوبو نواس...**).

وقد دارت بين هؤلاء الشعراء المحدثين والشعراء المحسوبين على المذهب القديم معارك أدبية ونقدية عرفت باسم (الصراع بين القدامى والمحدثين)، فأفضى هذا الصراع إلى انقسام النقاد إلى طائفتين: طائفة تناصر الشعر القديم وتتعصب له على نحو ما كان يفعل الرواة وعلماء اللغة؛ من أمثال ابن الأعرابي **(ت 341 هـ)**، في حين دعت طائفة أخرى إلى عدم التفريق بين القديم والمحدث، إلاّ بمقياس الجودة والفن.

ومن الذين نحوا هذا المنحى ابن قتيبة (ت 276 هـ) الذي التزم الحياد حيال النص الأدبي، بغض النظر عن معايير السبق الزمني أو الحضرية. يقول ابن قتيبة:« ولا **نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين وأعطيت كُلاًّ حظه... ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره** »[2].

ومن الذين اشتغلوا بالنقد والأدب، وكان لهم إلمام ببلاغة العرب وبيانهم وفنونهم الأدبية أبو عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ (ت 255 هـ)؛ إذ يُعدّ كتاباه (البيان والتبيين) و(كتاب الحيوان) من أهم الكتب التي تناولت فنون الأدب وأركانه، حيث حشد فيهما كثيراً من النصوص الأدبية وفنون الكلام، وأبدى رأيه فيها، مستشهداً بما يرويه من أقوال الرواة والمحدثين. وقد تميزت مؤلفاته بتلك السمة الموسوعية التي جعلت منه ناقداً فذاً واسع المعرفة، ضليعاً بالثقافة العربية والأجنبية، فكان« **عظيم الخبرة، رحب العقل والتفكير، ومن هنا تزاحمت عليه الأفكار وتسابقت إلى قلمه، فحشد ما استطاع أن يسجل مما جال بفكره في كتاباته** »[3].

---

[2] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص23.

[3] - بدوي طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي، ص 183.

وفي خضم تأليف الكتب النقدية والبلاغية، تخاصم النقاد في مفاضلاتهم بين الشعراء، وانعكس ذلك على النقد، فألف أبو بكر الصولي (ت 355 هـ) كتابه **(أخبار أبي تمام)**، وألف الآمدي (ت 370 هـ) كتابه **(الموازنة بين الطائيين)**. وقد سار كلاهما على المنهج الموازن بين الشاعرين وبين قصائدهما. فالصراع المحتدم آنذاك بين القدامى والمحدثين ألقى بظلاله على الحركة النقدية في العصر العباسي، مما حدا بكثير من النقاد على تحليل الشعر المحدث ومدارسته، على نحو ما فعل **ابن طباطبا** (ت 322 هـ) في كتابه **(عيار الشعر)**، والقاضي عبد العزيز الجرجاني في كتابه **(الوساطة بين المتنبي وخصومه)**.

ويذكر أن الآمدي في موازنته عاب على أبي تمام خروجه على عمود الشعر، وعدم التزامه بقواعده، كما رماه بالتكلف في الشعر، واستكراه المعاني والألفاظ، والمباعدة في التصوير. في حين استحسن شعر البحتري، لكونه قال الشعر بالفطرة، فظل مذهبه مطبوعاً على سنن الأوائل، فما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة.

ولما اختلف الناس في شعر المتنبي، دافع القاضي الجرجاني عنه في كتابه **(الوساطة بين المتنبي وخصومه)** مشيراً إلى وجوب الحكم على الشاعر بما أحسن وأجاد، ولا بما أساء. كما قام القاضي الجرجاني بدراسة مستفيضة لبعض الظواهر النقدية التي تداولها النقاد في عصره مثل: الغموض والسرقات... ليؤكد أثر الحضرية في ترقيق المعاني والألفاظ، كما توقف عند استنفاذ المعاني أمام المحدثين من الشعراء. وبخصوص مسألة السرقات الشعرية،إذ أقرّ صاحب الوساطة بالتماس العذر للمتأخرين، منوّهاً إلى ما سماه بالسرق الحاذق الذي يحصل بالقلب والنقل والتحوير.

ومن القضايا الكبرى التي استرعت اهتمام النقاد والباحثين في القرن الرابع وما بعده، **نظرية اللفظ والمعنى** التي أثارها الجاحظ، حتى غدت مقدمات الكتب في النقد والبلاغة تفرد مباحث مطولة في هذه المسألة. وقد انفرد عبد القاهر الجرجاني بدراسة المسألة من زاوية

نظم الكلام وترتيب معانيه، فركّز على **آلية التأليف الشعري(النظم)** التي عدّها منطلقاً أساسياً لرصد مواطن الجودة في النص الشعري.

ولقد تميز عبد القاهر الجرجاني عن النقاد الذين سبقوه بأنه أسس لذوق جديد يقوم على **جمالية النظم** الذي يتوخى معاني النحو في قوانين اللغة الشعرية. يقول عبد القاهر:« **إنه لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو** »[4]. **كما أشار أيضاً إلى جمالية اللغة الشعرية التي تنتج ما سماه بمعنى المعنى، وأنّ أيّ تغيير في البنية أو نسق الكلام، من شأنه تغيير المعنى، أو تبعثره.**

وقد بدت نظرية عبد القاهر الجرجاني متكاملة تجعل من النظم مقياساً لجودة الكلام، مبيّناً أنّ إعجاز القرآن الكريم لا يتجسد بألفاظه أو معانيه، وإنما بنظمه. ولذلك عُدّت نظريته تحقيقاً للوحدة على مستوى العبارة، أو الجملة الواحدة.

ويرى الباحث محمد زكي العشماوي أن آراء عبد القاهر الجرجاني ذات أهمية نوعية في سيرورة النقد العربي من وجهة أنها عملت على:

* التوحيد بين اللغة والشعر.
* القضاء على ثنائية اللفظ والمعنى.
* القضاء على الفصل بين التعبير العادي والتعبير المزخرف، أو بين التعبير والجمال.
* وضع منهج لغوي تطبيقي في دراسة الأدب ونقده[5].

وخلاصة القول أنّ النقد تطور في العصر العباسي ليقترن **بمستجدات الحياة العقلية والفكرية التي بلغها المجتمع العربي آنذاك.** فراح النقاد يغرفون من الروافد الأجنبية، وظهرت مؤلفات اتسمت بنقدها الخيالي، حيث امتزج النقد بالدين والفلسفة، على نحو ما فعل

[4] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمد رشيد رضا، د ط، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1978، ص238.
[5] - ينظر: محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص300.

أبو العلاء المعري (ت973هـ/1057م) في(رسالة الغفران)، والبحتري(ت280هـ) في (عبث الوليد).

وعموماً يمكن تلخيص أهم مميزات الحركة النقدية في العصر العباسي فيما يلي:

*اتساع حركة النقد النحوي واللغوي، بظهور النقد البياني الذي بحث في مقومات الصورة الأدبية، وعناصرها الجمالية.

* ظل النقد في العصر العباسي الأول يغرف من ذوق عربي خالص، لم تؤثر فيه الثقافات الوافدة. وقد تجلى هذا الاتجاه عند جماعة اللغويين والنحاة؛ كالخليل والأصمعي ويونس بن حبيب، ومن كانت لهم دراية بأسرار اللغة وأصولها.

* لاحظنا اعتماد الحركة النقدية على معايير الذوق والطبع، على الرغم من المؤثرات الأجنبية التي دعمت أسسه، ولكنها لم تقض على أصالته وسمات عروبته، على غرار ما وجدناه عند الآمدي في الموازنة، والقاضي الجرجاني في الوساطة.

* ابتداء من القرن الرابع خضع النقد العباسي لمقاييس المنطق والفلسفة(التأثر بكتاب فن الشعر لأرسطو)، وغلب فيه العقل على الذوق، على نحو ما ألفناه في كتب الجاحظ وأبي هلال العسكري خاصة **كتاب الصناعتين** (ت355هـ)، وقدامة بن جعفر.